المال المهاجر ! (*)

تورى مؤشرات الواقع الحاصل، أن معظم المال الوطنى فى الدول النامية مهاجر إلى خارج الديار، محروم بهجرته من أداء وظيفته الاجتماعية والاقتصادية والإصلاحية فى بلده، ومسخر - وهذه قمة المفارقة - لخدمة اقتصاد الدول الهارب إلى بنوكها!

هجرة المال إلى خارج الديار، ليست كهجرة الأشخاص، فالشخص يهاجر بحثاً عن ظروف أفضل لحياة أفضل يأمل فيها مساحة أوسع لتحقيق أمانيه.. أما هجرة المال فهى فرار وهروب للتخفى لا للنشاط، هذا الهروب هروب مدفوع بعلةٍ وحيدة تكمن فى البعد عن أعين وأيادى السلطات الوطنية، واتقاء الملاحقات الضريبية والقانونية والقضائية.. هذا الاتقاء لا يمكن أن تنشده الأموال المتحصلة من أنشطة شفافة حلال، فأمانها موفور لا تخشى معه ملاحقة ولا تخاف محاذير السؤال: "من أين لك هذا؟ "، فمصادرها معروفة وذيلها نظيف ولا يوجد ما تخشى إعلانه أو الإفصاح عنه!.. وإنما تحل الهواجس محل هذا الأمان، حين تتراكم الأموال من مصادر غير مشروعة، أو من حصاد أنشطة مؤثمة، أو حين تتخفى هاربة من أداء ضريبة المجتمع، أو حين يجتمع سبب أو أكثر من هذه الأسباب التى تقلق المال وتخيف صاحبه على مصيره، ولا تطمئنه إلى أمان غده، وتبعثره خوفاً من عيون الرصد التى سوف تتساءل كيف ومن أين وبأى أسلوب تم جمع هذه الأموال، وما عساه يكون قد

---

* ٢٠٠٦/٦/١٥

صاحب جمعها من جرائم ومآثم، أو اقترن به أو تلاه من تهرب ضريبى!.. هذا وغيره هو سر وحافز دوافع هروب الأموال إلى خارج الديار، وهى دوافع محسوبة اتقاء للملاحقات القانونية أو القضائية، وتجنبا للمسئولية والعقاب، وإيثارا للسلامة بعيداً عن مواطن الخطر والحساب!!

لذلك فإن وقف موجات هروب الأموال المهاجرة، لا يجدى فيه نصح ولا إقناع ولا ينفع فيه إستثارة النخوة الوطنية.. لأن القرار فى نظر صاحبه قرار مصير.. لازم ومدروس، شعاره أنا ومن بعدى الطوفان، لا سبيل غيره لاتقاء ما يخشاه ويتخوف منه إذا ما أتى يوم يجرى فيه حساب!. الشىء الوحيد الذى يفوت مخططات تهجير الأموال، أن أصحابها يمضون أعمارهم محرومين منها، لا يمارسون بها حياة، ولا يشبعون شيئا مما يتطلع إليه الناس، ويغلب أن يفارقوا الدنيا ولم ينعموا منها إلاّ بالبهجة الضريرة بتنامى وتراكم وزيادة الأرصدة النقدية، فلا يتيح لهم التخفى الذى آثروه فراراً من الملاحقة - آن يتنعموا بهذه الأموال، ولا أن تظهر بأى شكل فى أى صورة من صور حياتهم، بل يظهرون الفقر ويتحاشون إطلال علامات النعمة حتى لا ينكشف ما أرادوا ستره وإخفاءه، وهم غالباً ما يلجأون إلى الشفرات والأرقام السرية للحسابات إمعاناً فى التخفى وتضليل الملاحقات المتوجس منها، ومن أجل ذلك يتخذون عناوين للتراسل على خارج البلاد أيضا، حتى لا تمر بالوطن على أى معبر من المعابر فينكشف الخيط الموصل لمقر ومستودع المال المهاجر!.

وليس سراً أن أحد الضاربين فى هذا الباب بسهم كبير، قد حوكم أخيراً محاكمة طبقت أنباؤها الآفاق، وخشى رغم ما يحتاجه فى محنته من أمواله المهاجرة - خشى البوح بأرقام وشفرة حساباته السرية بالخارج - حتى لأفراد أسرته الأقربين !، وعلى شدة حذره وتحسبه، فاته شىء واحد لم يتحسب له ولم يتوقعه، مع أنه

المحتوم المؤكد الوحيد في هذه الدنيا!! دهمه الموت بغتة فرحل إلى ربه ومعه سر أرقام وشفرات حساباته السرية التى كابد السجن حتى الموت من أجل جمعها!!

هنا تتجلى الرؤية الضريرة التى تحتاج إلى بصيرة تدرك بها معنى الحياة، والقيمة الحقيقية للمال، فالأكفان التى توارى أجداث البشر لا جيوب لها، والمال المجموع من موارد الإثم ومهاوى الشرود والانحراف، لا يجد ثغرة للاستمتاع به أو استثماره فى النور، لأن ظهوره هلاك لجامعه، فيظن أن تفادى هذا الهلاك يكفله إخفاء المال وتهجيره وكنزه فى بنوك بخارج الديار، ناسياً فيما يظنه أنه يهلك هلاكاً من نوع آخر، لأنه يدفع من قلقه وخوفه وجبنه وتوجسه ثمنا فادحا لمقابل لم يأخذه حقيقة، وكيف يأخذه والمال الذى استهدفه وكابد من أجل جمعه - هارب مهاجر، ستره محتوم، وظهوره محظور، هذا الحظر يصادر على كل مظاهر النعمة فيفقد المال الهارب المكنوز أى قيمة، فقيمة المال مرهونة بما يمكن و لايمكن تفكيكه إليه من عناصر قوته المركزة.. قوة النقد لا تكمن فى محض عملات ورقية أو معدنية مكدسة، وإنما تولد القيمة بحيز الوجود الفعلى لحظة تحريكها بالإنفاق والتداول لتترجم فى صورة ممتلكات عقارية أو منقولة أو سلع أو منافع أو خدمات.. هذه العناصر - لا أوراق النقد - هى القيمة الفعلية للمال، يغدو بغيرها شيئا لا معنى ولا انعكاس له على حياة الآدمى !..

ظنّى أن هذه الحقيقة البسيطة غائبة غياباً تاماً عن فكر وبصيرة من يصرفون همهم إلى جمع المال بأى أسلوب مهما شرد أو جنح أو انحرف، وغائبة تماماً عن مخططاتهم تهريب الأموال واكتنازها سراً بخارج الديار!.. لا أتحدث هنا عن التحريم الدينى، فالدين غائب أصلاً عن ضمائر أصحاب هذه المسالك والدروب، وإنما أتحدث عن العقل والبصيرة التى لاتدرك أن المال الهارب المتخفى وراء الحدود

بالشفرات والأرقام السرية، هو فى النهاية عبء على صاحبه لا نعمة، فالنعمة محظورة عليه بدواعى واعتبارات التخفى والاستتار، أما العبء فلا فكاك منه، لا يستطيع أصحاب هذه المسالك التخلص من وطأته وهم مشغولون ليل نهار بالتخفى والاستتار، مهمومون بالحجب والمواراة، محرومون من أى استمتاع بما جمعوه، لا خلاص لهم من الخوف والقلق، ولا من التوجس والرعب من قارعة قد تأتى بغتة فتخطف المال وتودى بصاحبه إلى الهلاك الذى ظن أنه بمأمن أو يمكنه الإفلات منه!!!

وبعـد!!

هل هو قدر على شعوب العالم الثالث أن لا تتحمل فقط ما يغترف من أموالها، فتحرم فضلاً عن ذلك من حركة وتداول ومساهمة هذه الأموال فى النماء وإصلاح الحياة بأوطانها؟!.. لقد أدت الانفتاحات وسياساتها إلى سلاسة وسهولة انسياب الأموال، وانتشار عمليات غسيلها أو إخفائها.. هذا الوباء يدفع ثمنه الكادحون وتتحمله بلدان هى أحوج ما تكون إلى إسهام أموالها فى عمارها وبناء مستقبل الحياة فيها!